قصة قصيرة :

النسر

موسى كريدي

توقف في المسافة بين الحجر الاثري ، وخط الرمل المتحرك ، وراقب قرويا وقف كالحارس أمام المعبد وقد جعل اطار الباب الواسع متكأ لظهره ، بينما اتجهت عينا الرجل الزرقاوان نحو الجهة الاخرى واطالتا النظر وهما ترمقان عن قرب حركة الرمال المتموجة .. حملت الرياح أمامه في اللحظة نفسها بساطا من الرمل، بدأ متموجا ، شفافا مثل نسيج ـ التور ـ سرعان ما كان يتموج هنا ، ويتجمع في اللحظة هناك ، متأهبا لاغتيال الطارق والدخيل ، بدا له من بعيد مثل سطح متحرك ، ترجّه المياه عند صخور البحر . واذ يتأمل الرجل السائح دقائق هذه الحركة في اطراقة صامتة ، يفزّ كالطير على صوت سمعه يزف في اسراع من فوق رأسه .

رفع وجها بدا احمر في ضوء الشمس ، وعرف ان نسرا كبير الجناح قد مرّ الساعة خطفا . راقب حركته ببطء ثم اختفى عن ناظريه فيما خلف صف من النخل البري . تحرك الرجل ذو الوجه الاحمر والعينين الزرقاوين ، بعد أن أعاد قبعته الى رأسه ، واطمأن الى ان سيارته (اللاندروفر) المكشوفة لم تغص في الارض ولم يبتلعها الرمل . ولكي يتجنب مكمن الخطر ، استدار فيما حول البقعة الرملية مجتازا في الوقت نفسه بركة ماء داكنة . ارتكن الى ظهر أحجار « نفر » (*) وتسلل مثل لص حافي القدمين فاحتوته معابد الآلهة القديمة وعرف انه يطأ أرضا كانت معابد واسوارا لحضارة وادي الرافدين . شم رائحة الغبار ، تأمل الحجر المخروم ، وفيما هو مستغرق في النظر الى كل ما يحيطه من آثار ، شرع يهيىء نفسه لاستخدام جهاز تصويره . سمع مرة ثانية صوت حركة النسر يخفّ اليه ويكاد يمس قبعته الرمادية اللون . راقبه ثانية من خلال مقرب وهجس ان النسر يغامر بحياته من أجل ان يجلب الطعام الى فراخه . حاول أن يكتشف ان سكنى صغاره في عش ما مخبوء هنا ، فلم ير سوى النسر ذاته يلمحه من بعيد مثل حبة سوداء بيضوية الشكل تنبت في مدى أزرق شديد الزرقة .

حلّق النسر بعيدا في أعالي السماء .. بدا طائرا صغيرا .. بدا كالسنونو ، أليفا ، ناعم الريش . لكن الرجل المتربص به لم يأنس لهذا الخيال. فالطائر البعيد، على الرغم من انه يراه في أقصى الفضاء ، يهبط نحو دغل غريب أو يعلو رابية خضراء لا يمكن أن يأمن الخطر الذي كان يتراءى له بين لحظة وأخرى منشورا في جناحي هذا الطائر ذي العينين الحادتين ، والمنقار المحدد ، المنعقف ، المتهيىء للنقر ، ونهش اللحم . في هذه اللحظة تخيل الرجل اكثر من فريسة . أكثر من جثة قد تركها هذا النسر ، الآن ، فيما وراء النخل . فكر في ضرورة قنصه . تأكد ان باستطاعته أن يفعل ذلك وتذكر قول حبيبته : أنت أمهر الصيادين . همهم بصوت غامض ، معتقدا في دخيلته ان هذا النسر سيكون ملكا بين يديه . فرح لهذا الهاجس . هبط السهل الاخضر . ترجل ماسكا بيديه القويتين بندقية صيده الانكليزية . ظل يرقب المدى . كانت الريح تهبّ رخية . وكانت شمس الخريف في عيني الرجل تذكره بحلم توهج ذات يوم ، ثم انطفأ . رأى الشمس تجنح ببطء شديد نحو الجانب الغربي . استمر يصغي لصوت الريح . حين أدار وجهه الى الجانب الآخر سمع انتفاضة الطائر ، كالدوامة ، فنزل من أعلى فجأة . ما أن أوشك الطائر على الاقتراب حتى داهمت الرجل فكرة مغايرة لخطته في اصطياد النسر . رأى أن يترك بندقية الصيد جانبا . كان لا يريد أن يصيب النسر فيصبح جيفة ، وكان يرى ان الابقاء على حياة النسر أمر له أهميته في يوميات هذه الرحلة القصيرة .

عاد فاعتمر قبعته الجلد . نظر الى أسفل قامته . رأى انه ما زال يرتدي نعله الصندل وسرواله الكاوبوي. تهيأ للحركة . حين أخفى « كاميرته » التي تدلت على

(*) نفر ـ بلدة عراقية قديمة في العراق . فيها هياكل لآلهة سومر وبابل نحو ٢٩٠٠ ق.م . تقع حاليا قرب قضاء (عفك) في محافظة القادسية .

جانبه الايسر اعتلى سيارته . جلس وراء مقوده مغتبطا. هبط السهل ، بسرعة ، وما ان رسم قوس استدارة فيما حول الدغل القريب من بركة المياه حتى أطلّ الطائر من بعيد ولاح ضخم الهيئة ، شديد السواد .

رفرف النسر من جديد . في هذه اللحظة ابدى الرجل السائح كامل استعداده لكسر جناح النسر بمقدمة سيارته . حلم ، للحظات ، انه يطوح به في منحدرات السهل المفتوح ، يطرحه ، قابضا عليه بثقة صياد ماهر . صوّب الرجل عينين مثقلتين بالتوجس والترقب . بدا رشيقا ، مفتول العضل . كان وجهه أحمر وقامته فارعة . حين ظهر النسر ، قبالته ، على ارتفاع قامة رجل ، انطلقت السيارة باتجاهه تماما . اخترقته وبدت كما لو انها تجتاز غيمة صغيرة ، او جسدا منتصبا في العراء .

لم ير في اللحظة التالية سوى قبعته تتدحرج فوق السهب ، وسوى هامة راسه وقد مست مسا رقيقا جدا . قال لنفسه في غيظ ان هذا ليس بنسر وليس بعقاب جارح وانما هو في الحقيقة ، وحش كاسر ينبغي أن أطوح به الآن ، أن أقتله . استعاد الرجل الاجنبي تنفسه . كتم غيظه . قرر أن ينصب شباكا للطائر الغريب فيما وراء شجرة . كان يعرف ان للنسر المدوم في هذه المنطقة ، عينين حادتين ، وان له هجمة الصقر وحجم الرخ الاسطوري .

تأكد ان هذا الطائر لم يفزع بعد . وليس معقولا أن يكون من الجوارح المدربة على الهجوم بسرعة . والانسحاب بسرعة . كان النسر حذرا اكثر من حذر الرجل الاجنبي على نفسه ، وكان يلعب في أجواز السماء ويمرح بخفة عجيبة ، مما أثار مرة أخرى حفيظة عدوه اللدود .

تطلع الرجل بعينين محمرتين الى غور السماء فلم ير شيئا ، وندم في اللحظة على الرصاص الكثيف الذي تهاطل بشكل فجائي ، وطعن به الهواء . ولم تمض سوى بضع دقائق حتى هبط الطائر ورآه يرفّ بشكل موجي في رحبة المكان . وحين أطلق باتجاه صدره علم انه ما زال يطلق في فراغ كبير .

رأى الشمس بعيدة ، تهبط ببطء . فرمل مرة أخرى . وما هي الا لحظات حتى انحدر النسر فجأة وانقضّ على فريسته متموجا في صعود حالم . حين انحنى رأس الرجل على مقوده حاول أن يحمي وجهه الاحمر وعينيه الزرقاوين بكفيه المنداتين بالعرق ولكنه ما لبث أن رأى خيطا من الدم رفيعا ، ينساب من مقدمة جبهته . مسح الدم . رأى الاشياء تفرق نفسها في ارتباك واضح ، لم يصدق ان عينيه الزرقاوين الواسعتين قد سلمتا من أظفار النسر .

بان التعب في عينيه . سرى شيء كالبرد في أطرافه . نبت احساس بالغثيان في كيانه كله . فكر بالعودة من حيث أتى . وفيما هو يفكر في ذلك ، انطلق النسر من منسره كالسهم ونهشت أظفاره ملمس الوجه، البض الاحمر ، ثم طوى جناحيه وغار في السماء .

عصر الخوف قلب الرجل اذ رأى شبح الموت أمامه كاللعنة ، ومن خلال خيوط الدم المتشابكة ، رفع وجها مشوها ولمحه يحوم مثل طائرة موت سوداء تغير في حرب على موقع محدد الهدف فتصيبه قصفا ، ثم تنأى مبتعدة ... فزع الرجل مرة أخرى اذ رأى كتفي النسر مثل قمتين شامختين في كتلة سماء زرقاء، وراعه أن يرى بعينين مسدلتين على ضباب أحمر ، منقار خصمه ، مفتوحا ، يومىء لمن يراه برغبته في شرب الدم.

لم يعد باستطاعة الرجل ان يقاوم أكثر ، وبدا له ان كل شيء في هذه البقعة المخيفة المنطوية على صمت مخيف تحاصر جسده ليس بأن تصدّه عن التقدم أو تسد كل منافذ الامل في وجهه فقط ، وانما رأى ترابها، ورملها المتحرك ، ومياهها المطرية ، ونخلها ، وأحجارها القديمة ، ورياحها وانسها ووحشها ، وطيرها الجارحة تضعه رغما عنه في قبضتها كأنما تقف كلها في روح هذا النسر الغريب ليأخذ بثأرها ويمضي ، وليته يمضي ولا يراه .

اعترف أمام كل تلك الاشياء التي تغيرت فجأة انه لم يعد يستطيع أن يسترد ما فقد ... لقد هدّه الاعياء وبلغ به الحزن أقصاه ... لقد تعرى تماما مثل آلته الجهنمية العارية أمام الضوء والتي صارت ملعبا لطائر شرس يعرف متى يهرب عن أقواس شباك الاعداء .. ويعرف متى يفرّ نحو الاعالي ، وهو يعرف أيضا متى ينقضّ على فريسته ، ويمضي دون أن يعتريه أدنى خوف . خذلته آلته كما خذله سلاحه وخذلته حتى يداه في اللحظات الحرجة .

عاد النسر ثانية . صفق في الهواء ثم طوّف فوق هامة الراس ، غير انه سرعان ما هبط خفيف الجناح . اتجه بجسمه نحو جبهة الدم المثخنة بالجرح ... نقر الجرح الذي لم يندمل بعد . كان يفعل ذلك كما لو انه يحكم بدقة تنفيذ خطة مرسومة له من قبل .. حين مال جسد الرجل الاجنبي ، المنهك ، على الطرف الآخر ، هوى فوق الارض منكسرا ، مهزوما . لامست كتفه الايمن العجلة الامامية . استوى رأسه على الرمل ، اختلّ توازن العالم . دارت الارض دورتين أو أكثر . بعدها فتح الرجل عينيه نصف المسدلتين . رأى النسر ما زال يرقى . رأى جناحيه بلون البرتقال ، يلمعان ذهبيتين في ضوء الشمس التي أخفت نصفها فيما وراء التلال البعيدة .

بغداد